

تعتة الوفد

صدام الحضارات، وصم بين الثقافات

الندوة الشهرية الثقافية هذا الشهر (7 أغسطس) لجمعية المتواضعة "الطب النفسي التطوري" كانت عن **كلود ليفي شتراوس**، (الذي جاوز عمره المائة عام بعام واحد، وهو مازال يقرأ بلزك للمرة الأربعين ويتعلم اليابانية حالا) قدمها ابن جميل، أصبح فرنسيا جدا، ومازال مصريا جدا جدا، هو الدكتور رفيق حاتم الذي يقدم لنا في إجازته السنوية التي يقضيها بيننا كل عام، ما تيسر من فكر وخبرة من واقع معاشته هناك ما نحن أحوج إلى التعرف عليه، ليس فقط من الكتب.

فرحت باقتراحه موضوع الندوة، ورحت أراجع اختلافي مع شتراوس وحي له في آن، (ثلاثة عمالقة اختلف معهم بكل عناد، وأحبهم بكل عمق، وهو أحدهم : الاثنان الآخران هما : كارل بوبر، ونجيب محفوظ)

من أروع ما يميز بعض ناس هؤلاء القوم (أهل الغرب) السابقين لنا في القوة والتقدم واحتمال التدهور معاً، هو قدرتهم على الاختلاف، وجرأتهم في النقد الذاتي، واستعدادهم للتغير، ينطبق ذلك أكثر على مبدعيهم، وأقل كثيراً جداً على السطات والقوى التي تسيرهم علانية وسراً، نحن نأخذ منهم عادة العناوين والشائع دون التفاصيل والمراجعة، خذ مثلاً، حكاية فوكوياما وكتابه الخائب عن نهاية التاريخ، أصدره عام 1989 (وكأنه ليس عنده خبر أن يوم القيامة لم تثبت رؤية هلاله بعد)، لكن المتابع يعرف كيف أن فوكوياما طور موقفه بشكل له دلالاته مؤخراً، في كتابه اللاحق عن "التصدع العظيم" 1999 بما احتوى من مفهوم جديد أسماه "الرأسمال الاجتماعي" حذر فيه من انهيار النظام الأمريكي الجديد! ..إلخ، كذلك نحن لم نتمعق في فكر هانتنغتون وما يعنيه بصدام الثقافات ولو أننا أحسننا فهمه فقد تغير نظرنا لصراعنا مع اسرائيل، فقد نكتشف أنهم ورطونا في صراع بين اليهودية والاسلام ظاهراً، في حين أنه صراع بين ثقافة التراكم والخطرة والاستعباد، وبين ثقافة أخرى فقدت معالمها مرحلياً، (نحن للأسف) أكثر منه صراع على الأرض، أو على الموارد، (كل هذا يحتاج لعودة وتفصيل).

نرجع لموضوع اليوم: الاختلاف الذي طال أمده بين فكر شتراوس وبين مزاعم اليونسكو منذ عام 1971، ويتعلق بإصرار شتراوس على حق الثقافات المختلفة، حتى الثقافات البدائية في ما أسماه "صمم بين الثقافات"، بدأ شتراوس الانتباه إلى هذه القضية منذ سفره الباكر للبرازيل، بين عامي **1935 و1938** حيث أتبع له الاطلاع على أحوال الهنود الحمر، وانتهى إلى أن ثقافة أي مجتمع هي ظاهرة وباطنة، وهي إنما تدرس كما تدرس اللغة، فعادات المجتمع وتقاليد لغته، والأزياء لغة، والمطبخ لغة،...إلخ، راح شتراوس يؤكد على حق كل ثقافة في أن تظل «صماء» إزاء قيم ومنظومات "ثقافة الآخر". وهو ما يبدو لأول وهلة ضد زعم اليونسكو بالترويج لنمط واحد (بتوصية النظام العالمي الأمريكي الجديد) من خلال ما يسميه الانفتاح على الآخر، ينبه شتراوس إلى أن من حق أي صاحب ثقافة أن يختلف حتى ليصل الأمر إلى أن يكون متحفظاً وحذراً مما يصله من ثقافة الآخر، (وخاصة لو كان هذا الآخر يملك السلطة والسلاح والمال)، ظل شتراوس وفيماً لهذه الأفكار وعاد يدافع عنها مرة أخرى أمام اليونسكو سنة 2005، وهو يكرر أنه: "من أجل الحفاظ على التنوع الثقافي، يتوجب على الشعوب أن تتخذ من التبادلات وتحافظ على مسافة فيما بينها".

المصيبة أننا حين تصلنا مثل هذه الأفكار، لا نأخذ منها إلا ظاهرها -كما بينت في أول المقال- وقد نندفع إلى عكس ما أريد بها: إننا بمجرد أن نسمع أحدهم يدافع عن حقنا في الصمم، ونحن لا ينقصنا الصمم أو العمى والحمد لله، حتى نبرر الجمود والتعصب، دون أن ننتبه إلى مسئولية تطويرنا من واقع ثقافتنا الآنية، لا من أوهاام تاريخنا.

الصمم الذي يدافع عنه شتراوس هو لتأكيد التميز، وحق الاختلاف، حفزا للانطلاق الذاتي للالتقاء -على مسافة- بالآخر، الدفاع عن حق الصمم قد يساء استقباله حتى يقسمنا إلى قسمين، فريق يفرح به وينخلق أكثر في جوره المظلمه، وفريق يشجبه ويندفع أكثر في التقليد الأعمى، حتى يحوا ثقافته تماماً، تحت عناوين التنوير والتحرر وما شابه.

هذا الموقف الذي يترجح بين الشجب المتشنج فالجمود، وبين التبعية العمياء فالتقليد الأعمى هو الخطر الذي نتعرض له من التخلي عن الموقف النقدي المسئول الخلاق.

أحذر بوضوح أن تنتهي هذه الدعوة إلى حق الصمم، إلى وضع لافتات سلفية على نفس القيم التي ينتقدها أهلها بشجاعة، أو أن تنتهي على الجانب الآخر إلى رفض هذا الحق تماماً، ومن ثم التسليم لبلاهة تنويرية كاذبة

أخشى كذلك أن تبدو مقالتى وكأنها حل وسط مائع لا يقدم شيئاً إلا الرقص على السلم، للحصول على رضا السطان العالمي الأعظم، والكذب على أنفسنا

أعيد التنبيه في هذا المقال إلى بعض ما ذكرت في المقال السابق من أنه: إذا كان ثم نظام سيئ هو المطروح حالياً، وليس عندنا - كافة الناس- بديل جاهز، فإن العالم كله، بثقافته المختلفة، مكلف - تطورياً وبقائياً بالبحث عن بديل لائق مناسب، لابد أن يجرى البحث بإبداع واعد مثل ما فعل ويفعل شتراوس أطال الله عمره وأدام نفعه.

مرة أخرى استعمال ثقافتنا لحقها في الصمم بطريقة غبية قد يؤدي إلى التمدادى فى فخرنا بالتخلف والاختلاف

ثم إن رفضنا العشوائى للصمم عن ثقافة الآخر لا يعنى الاندفاع إلى التبعية وضرب تعظيم سلام على العمال على البطال، لمن يشكلنا لصالحه، تحت عناوين رشيقة وبراقة.

إن ممارسة الناس لصمم "انتقائى" بين الثقافات، هو تكليف لكل الناس بتحريك نحو الإبداع للإضافة، وليست دعوة خفية للتمسك بسلبيات كل الأطراف.